ذاكرة الجسد والهوية

كاستيت . ب *

ترجمة : حميد السلاسي

إن الذاكرة هي الملكة التي نتصور بها الماضي، أي ما تعلمناه وما عشناه، وعلى وجه الخصوص ما شعرنا به. وكل ما يمت بصلة إلى هذه الآثار من الأوقات المنصرمة. إن كل شيء يسجل في العقل، كما يدون في اللاشعور بكل مرجعياته، ليظهر من جديد –عند الحاجة– على ساحة الشعور. إن الذاكرة هي مكان التذكر، وبكيفية جد دقيقة، مكان للذكريات. إن نوع وطبيعة هذه الأخيرة تكمنان في إمكانية الانمحاء الظاهري، وهنا بالذات نتحدث عن النسيان. والواقع أن هذه الذكريات تظل موجودة بكيفية قارة. فالإنسان ليس إلا كيانا من الذكريات التي تحدده في كل ما يوجد عليه.

إن هذه الذكريات تكون مسجلة في أعماق الكائن الإنساني، مع احتمال انبعاثها أحيانا بشكل غير مرتقب، بل في غير محلها. إننا نعرف كم هو مرهق عبء الذكرى لاسيما عندما تظهر –بالرغم من تواريها بكيفية جد عميقة– على غير استعداد. يتعلق الأمر هنا بالتجربة العبقرية للتحليل النفسي التي هي تجربة رهيبة في أغلب الأحوال وقاتلة أحيانا.

بيد أن كل فرد يتذكر –دائما– ما كان عليه في استمراريته، بالرغم من التغيرات الظاهرية التي تلحقه. إن الذاكرة هي سند الهوية، أي إمكانية الاعتراف بالذات لأجل الذات قبل كل شيء. فلا أحد ينسى بتاتا ماضيه وحاضره ومستقبله. هكذا تُؤسس الذاكرة التصورالذي يكونه كل فرد عن ذاته، وأن ما نستحضره عندما نقول "أنا" هو: أي شيء ذاك الذي يجد الفرد فيه ذاته لأجل ذاته. إن الهوية تسجل في الذاكرة. إنها حدث هذه الأخيرة.

ليست الهوية مدونة في العقل فقط، ولكنها مطبوعة أيضا في الجسد، إنها تظهر في الإشارة، وفي وضع الجسد، وفي المظاهرالإيمائية، وهذه جميعها تعمل على قولبة الجسد والطلعة، وتجعل من كل فرد كائنا متميزا. إننا نعرف أن لكل فرد طريقته الخاصة به في المشي أو في الجري، بل نمطه الخاص في

كيفية لبوثه ثابتا أوفي ابتسامته أو توليع سيجارته أو استخدام ملعقته. إن حتمية هذه الحركات تكون لاشعورية من حيث شكلها، وبالتالي فهي حتمية تنتمي إلى ذاكرة الجسد.

حقا لكل من وضع الجسم والإيمائية دلالة يتم إدراكها من طرف الآخر إذا هي لم تتجل للفرد بكيفية تلقائية. هكذا نرفض لاشعوريا فكرة مكدرة لإشارة اليد، أو نبتسم لطلب سار. إن هذه الحركات لها غاية أصيلة تطبعها وتميزها أساسا عن الاستجابات الحركية التي ترتبط إما بالتفريغات العصبية كما هو الحال في الأزمة الصرعية، أو برجة التيار الكهربائي. إن هذه الحركات تُكتسب أحيانا في سير نرجسي. إنها الحركات التي نتناول بها ما هو مرغوب فيه ونستبعد بها ما يؤذي أو نبتعد بها عنه. وفي موضع آخر تُتعلم بفعل التربية، أو تنقل عبر حركة تماهي. إنها في كل الحالات دليل انبثاق الماضي ومآثر الذكريات، وآثار الاستثمارات البعيدة، ومواضيع الذاكرة. إن هذه الحركات تبدو في شكل آثار عصبية لتصبح تقريبا، وفي زمن معين، شبه ارتكاس. إنها حركات قابلة للتغير من جهة أخرى، غير أنها تعن كلما استدعى الموقف ظروف اكتسابها. إنها كذلك –حسب الأصول– حركات أكثر حرية بحيث تدون بعمق في ذاكرة الجسد، وعندئذ تصبح مألوفة، كما تصير لاشعورية في نهاية المطاف. هكذا ألا تخطر ببالنا –أثناء قيادتنا للسيارة– الحركة التي ينبغي القيام بها لتغييرالسرعة، وأيضا عندما نكون على دراية بركوب الحصان، ألا يخطر ببالنا وضع الركوب على المطية؟ غير أن الحركة يمكن أن تكون غير ملائمة–نقول عنها حركة غير موفقة–ليس فقط لكونها لا تحوز على الإعجاب في حينها، ولكن أيضا، وبالخصوص،عندما نستحضر ظروف اكتساب غير مرضية. هنا أيضا، وبالنسبة لمعنى الحركة الذي يوجد في ذاكرة الفرد، فإن تلك الحركة تستثمر بكيفية سلبية، ومن ثم يحمل الجسد في ذاكرته، الأثر السلبي لذلك الاستثمار. فليس ثمة شيء مقبول إطلاقا لا يتم تسجيله في آثار عصبية. وعلى هذا النحو نجد أن الطفل الذي يشكو –لسبب أو لآخر– من رُهاب (1) (phobie) الحصان – أو إلى كل ما يرمز اليه– لا يمكن أن يصبح فارسا.

إذا تمعنا جيدا في هذا الوضع، نجد أن وظيفة إعادة التربية السيكوحركية، هي إعادة الهوية الكاملة للفرد، وذلك عبر الإيقاع على ذاكرة جسده، أو في مقابل ذلك نعمل على التأثير على العقل عبر الجسد، أو بواسطة الحركة، أو وضع الجسد، أو الإيمائية.

إن ما هو عقلي يترجم في الجسد وبالجسد. يتعلق الأمر إذن بإعادة مكانة الحيز الأساسي للذة الجسد في اكتماله. وعليه، فالمقصود هو العمل على استثمار –بكيفية ايجابية– ما لم يستثمر من الجسد أو ما لم يوظف استثماره، أو ما تمت عملية استثماره، على نمط سلبي. وبكيفية إجمالية، يتعلق الأمر هنا

بتوليد اللذة حيث لا يوجد إلا الكرب. إن هذا الوضع يخلق رؤية جديدة (أخرى) للعالم توازي رؤية جديدة (أخرى) للذات.

يمكن أن نقول أيضا إن الجسد، أيا كان المستوى الذي يوجد فيه، غير منفصل عن العقل، وإن الذاكرة والهوية غير منفصلين عنها أيضا. إن هذا الوضع يبرهن لوحده مفهوم السيكوحركية. فإذا كان من الضروري على عالم النفس، المختص في المجال السيكوحركي، أن يأخذ بعين الاعتبار معنى الحركة، فقد يستحيل عليه أن يتغاضى عن ذاكرة الجسد التي سجلت فيها تلك الحركة بالإضافة إلى الهوية التي هي انعكاس لتلك الذاكرة و بينتها (دليلها).

الهوامش

النص المترجم مأخوذ من كتاب:

Le Corps et sa mémoire, Actes du VIo congrès international de psychomotricté, La Haye, 1984, Doin Edition, Paris, 1986

* طبيب عقلي ، رئيس قسم بالمستشفى البيقروي ببلانجير، حي الطب العقلي ،طريق ميتري 206390 اولناي .

1) رهاب أو خواف أو ذعار: خوف مرضي من أشياء أو كائنات أو أماكن أو وضعيات لا يفترض أن تثي الخوف عند الإنسان السوي (المترجم)